

## الأيقونة ورؤية الله

" تعال وانظر... "

يا لها من دعوة جريئة ومقدّسة! فيلبس يدعو نثنائيل ليشاهد معه ماذا؟ بالأحرى مَنْ؟ الله! كم كانت هذه الدعوة غريبة بالنسبة لإنسان يهوديٍّ تعلّم "أن لا أحد يرى الله إلاّ وبموت"! وإذا ما أراد أن يقترب من الله فيمكنه أن يلاقه في مجده فقط أو عن طريق حلول مجده في الخيمة أو المعبد؛ وإلى هناك، حيث كان يجلّ مجد الله عند تابوت العهد، كان لا يقترب إلاّ رئيس الكهنة مرّة واحدة في السنة. فكيف يُدعى رجل يهوديٍّ بإيمان كهذا ليرى الله مباشرة؟ لعل واقع هذا التحديّ آنذاك لم يكن أسهل من واقعه اليوم؟ هل من السهل أن نخرج اليوم، مثلاً، من الكنيسة ونلتقي بقربينا، مؤمناً كان أم ملحدًا، ونقوده بيده لنقول له: تعال لأريك الله؟

ورغم أنّ هذا التحديّ كبير، إلاّ أنّ المسيحيّ الحقّ يعرف أنّ الرسالة ملقاة على عاتقه. نعم، هذه هي رسالتنا أن نكشف الله للآخرين، لأننا رسل محبة وفداء لخلاص الآخرين. هذا التحديّ، رسالة نبتناها نحن المسيحيّين بالذات لأننا ندرك أنّها "حاجة" الناس الحقيقيّة، والمطلب الأخير للبحث الإنسانيّ المعذب غير المنظور.

الناس يتطلّعون إلى شتى الأمور، وينيون مختلف الأحلام، وينظرون إلى أهداف متنوعة لأنّهم عطشى؛ لكن الخبرة البشريّة دلّت على أنّ الوصول إلى كلّ تلك الغايات لا يترك بعده إلاّ العطش إلى المطلب الحقيقيّ. لقد عبّد فلاسفة أثينا وجربوا كلّ الآلهة، لكنّها كلّها لا تروي العطش الإنسانيّ، لذلك نصبوا معبداً للإله المجهول الذي جاء بولس يبشّرهم به.

العين البشريّة لا يمكنها أن ترتاح إلاّ إلى رؤية أيقونة الله. وهذه هي الحاجة البشريّة الأخيرة التي عبّر عنها فيلبس بالإنجيل حين قال ليسوع: "يا سيّد أرنا الآب (الله) وحسبنا".

الإنسان خروفٌ ضالٌ يبحث؛ والمسيح جددنا جاعلاً إيانا نوراً للعالم. هنا تكمن رسالتنا ورهافتها وسموها، أن نقود العالم إلى الرؤية المطلوبة من كلِّ بحث، إلى رؤية الله. يا لعظمة هذه الرسالة! إنَّ المحبة المسيحية تلتقط فوراً هذه الحاجة البشرية لتبنيها فتجعلها رسالة. "تعال وانظر"، هذه العبارة تلخص خطاب المسيحي مع كلِّ إنسانٍ حوله. إنَّها تلخص بالنهاية، أرثوذكسية كلِّ مسيحي. والمقصود هنا بالأرثوذكسية (استقامة الرأي) الأرثوذكسية (استقامة المسلك). "تعال وانظر"، هذه العبارة هي كلمتنا إلى الناس، إلى أيِّ فكر انتموا، إنَّها هاجسٌ في داخلنا. طوبى لأقدام المبشرين بعبارة السلام هذه.

ورداً على السؤال "يا سيّد أرنا الآب وحسبنا"، أجاب يسوع: "من رأي فقد رأى الآب". المسيح هو صورة الآب، إنَّه كلمة الآب للناس، يُمثّل كامل المشيئة الإلهية، إنَّه مكان الآب فعلاً. به نرى ونعرف الآب وهو الذي يكشف لنا. وهذه الكلمة، المسيح، نراه نحن ونتلقاه ونحيا معه بطرقٍ متعددة. يمكننا أن نرى يسوع ونخاطبه، ونتعلّم منه بواسطة الأيقونة. هل رأينا أيقونة للضابط الكلّ وتعلمنا منها عناية الله بنا ودعوته لنا! كلِّما نظرنا إلى أيقونة الميلاد نجوز بها إلى حدث التجسّد، إلى النداء الإلهي، إلى فتح الله لتاريخنا البشري، وتاريخنا الشخصي الذي يدفعنا إلى جواب يوجّه حياتنا. الأيقونة هي المسيح معبر عنه بالألوان. الأيقونة تعبّر حيناً عن عناية الله بهذه الألوان، وحيناً آخر عن جبروته، عن تواضعه، وعن كلِّ شيء. وكلِّ شيء فيه جميل ويشكل لنا دعوة. فنحن نتخاطب والمسيح بواسطة الأيقونة.

الأيقونة أداة عبادة. ونقصد بالعبادة هنا كلِّ ما يقودنا إلى مخاطبة الله والتشاور (الحوار) معه بشأن حياتنا، ومسلكتنا، وعلاقتنا بالآخر. بالأيقونة إذن نرى الله، وبالأيقونة نكشفه للآخرين أيضاً.

وإذا كنا نريد أن نرسم المحبة الإلهية ونكشفها للناس في أقصى حدّها، ونلخص عبارة يوحنا الحبيب، "ليس حبّ أعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه"، فلنرسم المسيح باسطاً يديه على الصليب، ولنكشف هذا السرّ للجميع. فلنرفع يا إخوة الأيقونات عالياً لأنَّها كلمة بألوان، عوض

الحروف، فتقودنا إلى تحقيق تلك العبارة "تعال وانظر". "انظر..."، في هذه الأيقونة الحبّ الإلهي، وفي تلك عدله، وفي أخرى نداءه، وفي سواها مبادرته، وفي غيرها انتظاره لنا...

إكرام الأيقونات واجب، لأنّ الأيقونة تجوز بنا إلى عنصرها الأول، كما يقول باسيليوس الكبير، وبالتالي تغدو أداةً تكشف بها الله للناس.

الأيقونة تروي عطش العين البشريّة وتعطيها ارتياحها. القديس سلوان الآثوسي حين التحق بالدير بعد حياة متقلّبة وبدأ حياة التوبة وأتعاب الفضيلة، دخل إلى الكنيسة مرّةً وهناك شاهد في أيقونة السيّد ملامح الغفران.

فلأيقونتك الطاهرة أيّها الصالح نسجد مستمدين مغفرة الخطايا، وإيّاها نرفع وننظر، وبها نكشف وجهك وحبّك ونصرخ إلى كلّ قريب "تعال وانظر".

آمين

